يوسف سامي اليوسف

تجربة فدوى طوقان
١ – المرحلة الأولى: التفاعل مع الحياة المعيشة تتوّر الفنان وقوته

لست أعرف إلا القليل من التفاصيل عن حياة فدوى طوقان، الشاعرة التي باتت من تراثيي حركة الشعر العربي في فلسطين، إلى جانب أبي سلمى والبحيري وهارون هاشم رشيد ويوسف الخطيب، وسواهم، وكذلك إلى جانب أخيها ابراهيم طوقان الذي يمكن أن يعد بحق، مع عبدالرحيم محمود، رائد الحركة الشعرية في القطر المنكوب. بيد أنّه لا يمكن لتفاصيل حياة أي شاعر، في حال غيابها، أن تعرقل الفهم الأدبي لنتاج هذا الشاعر، وإن كان حضورها مما يضفي العمق على ذلك الفهم.

إذا ما ألقينا نظرة أفقية على مجمل إنتاج فدوى طوقان فإننا سنرى، دونما صعوبة، أن التقلات في شعرها ليست بالحادة، إذا ما استثنينا ذلك التحول الكبير الذي طرأ على خط تطورها عند تخوم العام الستين من هذا القرن. والملحوظ، بكل وضوح، أن هذا التحول لم يكن في الشكل وحسب، أي لم يكن مجرد انتقال من القصيدة العمودية إلى القصيدة حديثة الوزن! بل هو، بالدرجة الأولى، تحول في المضمون نقله من حال التمركز حول الذات، حول الأنا، إلى حال التمركز حول الخارج، حول الموضوع، في الغالب الأعم. ولعل من شأن هذه الظاهرة أن تؤكد الحقيقة الرامية إلى أن كل تغير في الاشكال الأدبية إنما يسبقه ويشرطه تغير في الافكار والتصورات، أي تغير في المضمون يحدد صورة الشكل ويسهم في استقلابها من كيف إلى آخر.

وبإزاء مثل هذا التحول الكبير البيِّن المعالم، نملك أن نوزع مجمل نتاجها الشعري على مرحلتين متباينتين، دون أن تكونا متفارقتين بالضرورة. تستأثر المرحلة الأولى، منهما، بجملة إنتاجها خلال الاربعينات والخمسينات (أي دواوينها الثلاثة الأولى)، بينما تستحوذ المرحلة الثانية على بقية ما أبدعت من شعر. ومع أن هذا التقسيم صحيح إلى حد بعيد،